صحيفة المرأة المسلمة

العدد : ٢١٥ الموافق في شعبان ١٤٢٠ هجري ١ / ٢٠٠٠ ميلادي

عنوان المقال : الطهو البشري –٥–	بقلم : سها عبد الحميد

هاجر.. أمومة القيادة

بلى سيدتي المرأة .. لن يكون الطهو البشري

إيماناً راسخاً ونيَّة صادقة واحتساباً ممتعاً إلا بالإسلام

فما زالت نار الحياة موقدة

وما زالت الأرحام أوعية

وما زلتِ أنت المسؤولة

عن طهو الإنسان ... عن نضج الإنسان

عن تربية الإنسان ... لأنك أم الإنسان

فلنمضي معاً نسافر إلى نواة التراث

ونبحر معاً في مواقف العظيمات مستريحات في أحضان الروايات المقدرة ...

لنرى كيف خَطَّت امرأة عبرةَ العبر

ودونت بروعة إنسانيتها حدثاً قدَّسه التاريخ

وعلى مسار الدهر يمارسه البشر

حدثاً اعتز به سجل الأنبياء

مزخرفاً به تراث التجارب البشرية

في كل حول نجدده آلاف المرات

موقف لإمرأة فجعتها مأساة ثكلى بكل ما في الآلام من مشاعر لتتغلغل إلى ركن من أركان الإسلام

وتنمو لتغد وشعائر كانت جارية مملوكة لجبار طاغية

أمة من الرقيق حريتها خرساء

صُدرت كبضاعة صماء

قُدمت كتعبير عن الغفران والعرفان

من الرق إلى العبودية تُمتلك وتهدى

وتتداول بين الأشخاص كسلعة إنسانية
لا يحق لها بحال من الأحوال أن تتذوق نكهة أناها الحرة تجاوزت سارة السبعين
شاخت وانهدم في أنوثتها أمل الإنجاب
وتلاشى رجاؤها في عنفوان أمنيتها بلقاء ثمرة الفؤاد
لتدخل هاجر حدثاً في سلسلة هذا الحرمان
أنثى ولود كبديل عن أنثى عقيم ... اقترنت بإبراهيم الخليل
بديلٌ لا يُسأل ويحرم من خاصية الاختيار
أجابت كأسيرة .. لبَّت كمملوكة
وها هو نبض الجنين المُنتظر
وتتابع الرواية أحداثها المفعمة بكل ما في طبيعة البشر
من ضعف وحس قصير النظر ورغبات بالرغم من أنها عارمة للغاية
زائلة حتى النهاية
لتُصب كل السيول في حوض هاجر الأمومة القيادة
ويطلق القادر الرؤوف الجبار الرحيم أمراً بالرحيل
ويسخر الزمان .. ليتحول إلى مقصلة
ويسخر الزمان .. ليغدو مجزرة
ويمضي إبراهيم بهما شطر الجنوب
وتتبعه هاجر وقد ألف كل فجر في إنسانيتها لسعات الغروب تشق طريقها عبر الرمال المذعورة ..
لا ينصت لأنين أمومتها إلا الجبال الصماء
وفي بقعة من الأرض مقفرة
اختلط الزمان بالمكان وسجدا لموقف صارماً بإلهام العالِم
ليبكي إسماعيل الصغير.. وتجزع هاجر أسيرة الأسارى
ويمضي إبراهيم الأمة .. دون أن يلتفت إلى الوراء
وحزن هاجر بليغ في حواسه
وولدت عندها فاجعة الأمومة

وحدةٌ في المكان كما هي اليوم غربة الإيمان

وجور في الزمان كما هو اضطهاد اليوم لكل من يصر على بقائه كإنسان

وتتبعه هاجر ووعيد الظلام يبلغها بقدوم الوحدة لتمارسها قدوة

ورجلها يبتعد ويمضي عائداً إلى كنعان

ليطلق صهيل الخوف في أمومتها العنان

تتبعه بحرقة .. تتوسل إليه بالبقاء

تستعطفه متضرعة بما يرق له قلب أقسى إنسان

وفي حياة كل منا قطعة من الحرمان

ليس في دنيانا الزائلة عطاء تام

لم تغضب كزوجة بصمته الذي لا يملك شيئاً لوحشتها في خضم الأحداث

وكثير .. كثير من الزوجات مهجورات

لأزواج في السجون بالمئات

وأزواج كتبت عليهم ابتلاءات متعددة الأسباب

وهنا يعلو الإيمان ليهدىء مختلف الروعات

تسلق إيمان هاجر القمم واحتل يقينها الصدارة

وزفت إليه سؤالها كجلاء لكل الأحزان

آلله أمرك بهذا ؟ وكررت السؤال مرات ثلاث

وعندما أجاب : نعم

أدركت أنها ليست وحيدة أبداً

معها ربّ المكان

ورب الزمان

ورب إبراهيم الإنسان

ألا يعلمنا موقفها أن نعلو فوق الجراح والأحزان

فلا تزعزع إيمانَنا الفواجعُ .. ونرفض أبداً أن ترسمنا الأحداث

ألا يشبه وادي هاجر المهجور

عالمَ اليوم المبهور

على ضعفها استجمعت بالإيمان قواها

أسعفها رضاها

استشعرت عظم مسؤوليتها

كان يكفي أن تدرك معنى أنها أم لتثبُت خطاها

وخطت منهج تربيتها الجادة

بأحضان روع ساحق

وزعر كالح

وفاجعة مرتاعة

ها هي عبرة مؤنتها التي نفذت

مرآة لمؤونة كل أم تتمنى أن تستقر في صدور أبنائها الفضائل

والعالم من حولهم ملوث بألوف الألوان من الرذائل

وبدأ الرضيع يتلوى وماء الحياة يجف في ثدييها

وتجري ملهوفة بين الصفا والمروة

تجري بما تملك وبما لا تملك من القوى

لاتحلم إلا أن تؤمِّن لهذا المخلوق خفقة الحياة

وتغذيه ليكبر ويصبح رجلاً أو إمرأة

أنثى ملهوفة للعطاء تعيش بشقاء في تلك الخلوة

وكثيراً ما تكون الأنثى في عوالمنا مضطهدة

بوأدها الخفي كلما استيقظ حسّ الجاهلية الهاجع

في قلب كل غليظ متكبر يحزن لولادتها ويفزع من مسؤولية تربيتها

مضطهدة في خدور الزوجية .. ذاك الاضطهاد

الذي يتقن العديد من اللغات

وله عشرات الأشكال والألوان

ألا يصبر اللواتي أصبحن بالمئات

وها هي هاجر لا تجد رداً على جريها المتتابع
وإعياؤها المتهافت لبقاء خفقة الحياة
في روح ولدها .. سوى الصمت المطبق
ولا يضمها أحد إلى صدره ويتركها تبكي ما تشاء
سوى جبال صماء للفاجعة
جبلت على الصلابة بكل عناية
لكنها كأم مفزوعة ..
وكزوجة مهجورة
لم تتسمر عند حدود الألم
ولم تشل خطاها لتقعد كالدجاجة فوق أجنتها
مكتفية بحصر مهمتها في الإنجاب والولادة
ورغم حبها الغزير الجزع ورضيعها يحتضر ..
لم تحبسه في أحضانها لتغمره بالدموع والقبل
بل زحفت بشللها الجبار بعيداً عن آلامه وآلامها
وراحت تسعى
كل أسباب الحياة من حولها مفقودة ..
وبالرغم من صدى عواء الذئاب القادم
لم تبال برائحة الفرائس الملتهمة
تركته وحيداً حباً به .. عطفاً عليه .. إنقاذاً لحياته
مستودعة إياه عند الذي لا تضيع عنده الودائع
لتمارس إيمانها من خلال حكمة تضيفها لعاطفة
ورزانة أمل تبثها في رقة مشاعر
حُباً له زهدت فيه
وكان الحدث عبرة في الإبتلاء
عبرة في الاختيار

وفي حياة كل أم ابتلاء واختبار

لم تغضب من إبراهيم وتحجِّمه في حدود حدثه البشري

بل أيقنت أن تركه لها أيضاً ابتلاء

فأعانته على تجاوز الاختبار

ولم تكن مع المحنة عليه مزيداً من الابتلاء

استسلمت لقدرها بكل رضاً وإصرار على النجاح

واستجاب الملك القدوس الجبار القهار ..

لحبها الصارم ولإيمانها باليقين الثابت

لينبع الماء وليتعلم الناس على مدار الزمن

كيف يرضع الطفل مع حليب أمه عظمة موافقها

وطبيعة رؤيتها .. وروعة تضحيتها

وارتشف إسماعيل قطرات التربية الحقيقية

إيمانها بالله وهي في واد جامد العبرات

وإدراكها لرحمة وحكمة قدر الله حتى ولو بدا جباراً

وعندما غزت أمه أمر الله لزوجها بأسمن معان الإيثار

لقنته تجربة الإيمان في أن يلبي الإنسان ربه بكل امتنان

ليكبر إسماعيل ويتكرر ابن نفس الاختبار

ويجيب إسماعيل أباه : افعل ما تؤمر

كما أجابت هاجر أباه : افعل ما تؤمر

ونتحدث ونتغنى

ونتحدث ونطرب ونضربها مثلاً روعة الذبح والفداء

وكيف نودي الأب ولبى الولد النداء

ألا نستشف في أغوار تلك الرواية أن طاعة هاجرسر طاعة إسماعيل

واستسلام هاجر لقدر الله وقود التسليم في ذات ولدها وموقفها الصائب رغم تباين المواقف من حولها

كان سر عطائها وسر نجاحها ليمارس سعيها

ويتجسد موقفها ويحتل مرتبة الشعيرة التي يؤديها كل الرجال وكل النساء

وها هو عطاء الوهاب وعدالة السماء

تقدر مغزى فهمها الحقيقي للإسلام كاستسلام

وها هو رقها كمملوكة

وإرسالها في طرد شرعي كزوجة

ونفيها إلى صحراء جرداء كأمم ملوعة

جعل منها أم العرب العدنانين

واستيعابها لقداسة الميثاق الغليظ ارتقى بها من زوجة مهداة كبديلة

إلى زوجة نبي وأم نبي

وتُدون الأحداث في كنوز تراثنا العظيم

لنستشعر عدالة الله وإكرامه للمرأة

ها هي هاجر تحيا في حس مفهومنا للعبادة

خُلد موقفها للأبد

ولا بد أن تكون روايتها للنساء مدداً بلا مدد .